وطني المسلوب

سمر خالد

عُدت بقلب يتضـــخم حبًا، بمالكة الفؤاد المنتظرة، العقل يرســـم العديد من اللحظات، كيف تســـتقبل الغالية حبيبها بعد غياب، وفيت بالوعد وعدت لأحضان البلاد، لأنال سعادتي المؤجلة، منيت نفسي طول الطريق باللقاء، عل الشوق يسكن بالقلب، لكن الترقب كان بالمرصـــاد، أفكر في ابنة العم وصـــاحبة العهد، كيف كانت بغيـابي؟ هـل بطـأ النبض من أثر البعـاد؟ أم احتج قلبهـا من ألم الاشتياق، حمقاء هي لو ظنت أن البعد عن محراب حبنا اعتياد، بل كان كالشـوك بخاصرتي، يشـتد انغماسـه كلما مرت الأيام، نسـيتُ بغيابي عنكِ ســيدتي أن الحياة يجب أن تُعاش، فكنت لا أحيا إلا بذكراكِ، لعنت كثيرًا ضعف الحال، فصارت لعناتي لا تفارق لساني، وصار النزق عنواني، لكن وعدك مواساتي، وعهودنا مناجاتي، فوفيت بالعهد وعدت إليكِ يا غايتي فهل شـــعر بي قلبك، هل أراك تطلين من شرفتك تنتظرين طيفي الغارب، أم أن البعد عطل بوصـــلتك، وصرت غريب عن تكهناتك؟

وصـلت لمنزلها بلهفةٍ، أعدو على درجات البناية مبتسـمًا وأنا أحيك العديد من التوقعات، هل ســتركض ترتمي بأحضـــاني باكية ألم اشتياقها؟ أم ستنتظر لي معاتبة طول البعاد ووحشته؟

أكاد أموت رغبةً بإلقاء همي، ومعاناتي بين ذراعيها، أشـــكو إليها احتضاراتي في سبيل الوصول إليها، أخبرها كيف مرت الأشهر والأيام قاحلة، لا تبشر بخيرًا.

كم قابلتني ســقطات أعيتني، وأخمدت عزيمتي، لكني بذكراها كنت أقف من جديد، حتى كفئت على صـبري في النهاية، نعم لم أعد ثريًا

ذو نفوذ وسـلطة كما وعدتها، لكني عدت قادرًا على المضيـ قدمًا بحياة كريمة، حياة رسـمتها بعقلي طول غيابي، حيث كنتِ أنتِ أسـاسـها، فما عدت أخاف فقدانك، فالحواجز ما بيننا سـقطت واقتراننا صار ممكنًا.

طويتُ ما بقي من طريقٌ، يفصـل دروبنا وصـلتُ لبابك منتصرًـا، متلهفًا للقاء، دلفت من الباب المشرـوع بهدوء و بقايا تعقل عادت، لتسـتلم زمـام الإدراك، لأنظر حولي بـانـدهـاش أرى الكثير من الأشخاص، و اسمع هناك صوت الموسيقى الصاخبة، أرى أضواء تزين منزلها و قلبي يتهاوى بإعياء، مرتجفًا يترقب مراسم احتراقه.

سرت بقدمين خـائرتـان، لا تحتمـل حملي الثقيـل، تقـدمـت مترددًا أبتهل أن تخيب ظنوني، ويكذب إحساسي، لكن ذلك المشهد أطاح بكل الأمنياتِ، وصـدق على احتضـاراي، فالحبيبة خانت العهد، لم يكد يجف حبر الاتفاق، فذهبت وأشـعلت بأحلامي النيران، سـلمت حصـونها لآخر، احتل ميداني باقتدار، فما عاد لي وطن، ولا سـقف لأحلامي الوليدة، فتطايرت بالهواء هـاربة من قيود حب غـادر. أي ظلم ألحقتـه بقلبي، لأهبـه لمتلاعبـة، أي جرح أحـدثتـه بكبريـائي، لأجعله لعبة بين يديها، فلترقدي يا روحي بسـلام، فوطني لفظني مرحبًا باحتلال.

دلفتُ للغرفة، حيث كانت تجلس بجوار الآخر والسعادة بادية على وجهها، استقبلني العم بالترحاب، فهو لا يدري أي منافقة هي ابنته، فقابلت ترحيبه باقتضاب، تناوبت المصافحات، حتى وصلت للفتاة

ذات الثوب الأسـود، التي شـملتني بنظرات العتاب... هل تعاتبني أنا حقًا!

لم؟ أتعاتبني على مغابات نفسيـ، أم على إهانة حبي؟ لا يهم فقد تلاقـت النظرات، مع محطمـة القلـب الفاتنـة، من تزينـت لغيري، وتركتني أعـاني الخـذلان، قـابلـت عيناهـا المصـدومتان، بعينـان متقدتان اسـتقبلت رسـائل العفو بإمتنان، لتجيبها النظرات متوعدة بانتقام لحب أريق تحت قدميها بامتهان.

جلسـتُ بحضرتها بخشـوع أعاني تمزق قلبي و احتراق روحي بهدوء، أراقب سـعادتها بصـبر ينافس الجبال بصـلابته، حاولت أن أُحيد بعيناي، أن أدعي الانشـغال، أشـاحتُ بوجهي صـاغرًا، عل أجد ما يحوز على انتباهي مشـتتًا، فالوجع فاق المحتمل، و العين تهدد بهطول المطر، فتوارت شـمسـنا و غربت، و لم يبقى سـوى السحب... عاد من ضلاله على صوتًا ضعيفًا يشدو بعذوبة، عكس قوة كلماتهـا الحـارقـة التي أطـاحـت بقلبـه العليـل، نظرتُ إليهـا كالسـجين، يناجي بعيناها العفو، صـمت أحال الغرفة لإعصـار من المشـاعر المضـطربة، فهنا القلب ينزوي بمسـكنه يلعق جراح حب وئد قبل أن يرى النور، حب لا يحق لـه أن يطلع إليه، فهو لم يعد متاح كما أحلامه المبتورة...

_ألم تنتهي من الرثاء؟ أم حزنك على حبك فاق الكبرياء، اصـمد يا رجل وتخطي الآمر باستغناء.

فـأجبتهـا دون أن أرى وجههـا، فيكفي صـوتهـا لأعلم من هي ذات الثوب الأسود، من سبرت أغوار قلبي كاشفة جراحي الغائرة.

_ألا يحق لهذا القلب الانزواء، لقد حرمت عيني البكاء، يكفي أن أحلامي تناثرت وصـــارت هباءً، فدعيني إذا للرثاء، واذهبي لأختك ناقدة العهود، فما جئت لأجله اختفى وحان لي أن أعود.

لم أشعر بتأملي المتمعن بهما، إلا عندما قبضت يد ناعمة بملمسها قوية بما تبثه من مشـــاعر تفهم ومواســـاة، لم أنتظر من أيّ أحد شفقة يومًا، لكن لم أستطيع رد مواساتها في تلك اللحظات القاتلة، الآن يزين يد حبيبتي الغادرة خاتم ليس لي، الآن تحطم آخر حلم لي واستوطن بنصرها صك ملكية آخر، فيا ليت ما أراه يكون أضغاث، وأنا الآن مضـــجع على فراشي أغوص بـالأحلام وأعود لأجد حبي بالانتظار.

جذبتني يدها بقوة، كمن ينتشـــل غريقا يلفظ أنفاســـه، ابتعدت بي متجنبة مراســـم الفرح، لم أعي أين أكون، إلا عندما رأيت أضـــواء عـديـدة أمـامي، رفعـت رأسي أتـأمـل المكان، فواجهتي الســـمـاء بمصـابيحها الفضـية، تتراقص على صراخات روحي مختالةً ببهائها، أشـــحت وجهي ناظرًا لمن جاءت بي لتلك الشرـفة التي شـــملتها أحلامي، بفتاة أخرى تنتظرني بلهفة العشـــاق، لكن فقاعة الأحلام الوردية، انفجرت بوجهي ناثرة ألاف الخيبات، لم يقطع الصـــمت سواها، فـــاليوم لم يزورني الكلام، فهمست بصوت يسكنه الهيام، قائلة بانسجام:

_هل تتذكر اســـم ذاك الكتاب الذي أعجبك عندم كنت بالمرحلة الأولى من الجامعة؟ ذاك الذي بحثت عنه كثيرًا، حتى فقدت الأمل باقتنائه، فتبخر اهتمامك به سريعًا!

نظرتُ إليها مقطبًا، أتذكر هل ذكرت لأحد ولعي بذاك الكتاب يومًا، ثم نطقت بارتباك:

_كيف علمتي عن ذاك الكتاب؟ لقد انقضى الكثير من الأعوام!

ابتسمت بشرود، ثم أضافت بتأمل كأنها تسترجع الذكريات:

_هل ما زلت تفضل أغاني (عبد الوهاب)، وتداوم على سماعها ليلًا؟ أم عادتك انمحت بفضل الغياب؟

التفت نحوها، يتأمل جانب وجهها الشاخص للأمام بتعجب، كيف لها أن تعلم هذا؟

فأجبتها مهادنًا، كي أحصل على مصدر المعلومات:

_هل هناك المزيد؟ أم جف بئر أسراري!

التفتت مواجهة نظراتي المتفحصة، فبادلتني بأخرى متحدية، ولأول مرة أمعن النظر لعيناها، وكم هي جميلة وحزينة، فعقدت حاجبي جاهلًا، كيف لفتاة مثلها أن تحزن، فهو لطالما وجدها كاملة، تحمل من الذكاء والجمال ما يكفي لجعلها مختالة بنفسها واثقة!

أجابت سؤاله المتطلب، بثقة اثارت إعجابه وارتيابه معًا:

_الكثير... أعلم الكثير، فأسرارك كما تحب أن تسميها ظاهرة للعلن، لكن يراها فقط من يهتم.

نظر لها بصمت للحظات، ثم سألها بأمل، لا يعلم لم؟ لكن فكرة أن تهتم به تلك الفتاة لا المرأة هي ليست مجرد فتاة، فهي أضحت امرأة ذكية الآن كما يبدو، لكن الفكرة بحد ذاتها تروق له!

_وهل أنتِ مهتمة؟

نظرت له بآسف، قبل أن تجيبه بيأس أكال لقلبه لكمة قوية، تراجع على إثرها بضع خطوات:

_كنتُ قبل أن تنبذ اهتمامي، وتتعلق بأختي... فمن عاهدتها خانت، فهل يحق لك محاسبتي أنا على اهتمام لم تراه؟!

نظر لها باهتمام، وبسط يده عارض عليها السلام، التقى بنظراتها التي لانت قليلاً، وصار التفاهم بالإمكان. نظرت له تارة، ووليده تارة باتهام، فابتسم لها باعتذار.. فكيف لها أن تجرب الخذلان!

تحدث بعد لحظات، ونظرات عيناه شابها الحنان، والكلمات تخرج عن سياق الاهتمام، فتتخذ مسمى سابق للأوان، يبدو أن كل ما يتعلق بتلك المرأة يدعو للخروج عن المألوف!

_هل تتذكري تلك الدمية الصغيرة الوردية، التي أهديتك إياها في عيد مولدك الثالث عشر؟ حينها غضبتي وقولت لي أنكِ لم تعودي طفلة، لتلهي بالدمى، ورحلتِ غاضبة، أنتِ مازلتِ محتفظة بها حتى اليوم، تشكي لها حماقة المغدور، لكن ماذا ستبرر لكِ هديتي غير أن الأحمق معذور، فقد كان مشوش بحب أجاد العبور، فقلبه كان مغلق دائمًا، وفي غفلة منه سلم مفاتيحه لعابر سبيل.

نظرت له بعيون عاتبة، تخشى على قلبها من مباغتته القادرة على تسليم قلبها قربانًا لكبريائه المهشمة، لتشفي الجروح النازفة. فأحاطت قلبها بالمزيد من القيود، وأحالت مشاعرها لحالة الجمود، فقالت له مرغمة، من عزيمة ولدت من رحم كبريائها المكلوم:

_هل سـيبرأ الجرح، بالتلاعب بالآخرين؟ فأنت مخطئ لو ظننت أن اهتمامي بك، قابل للتجديد، فلو كان هناك فرصـة سـابقًا، فالآن كل الافتراضات سقطت بالتأكيد.

نظر لها بجـديـة، وعينـاه تنطق بـالإصرار، فهو رافض أن تظن بـه التلاعب، وأنه سيسلب مشاعرها بانتصار، فقال لها بعزيمة الثوار:

لو ظننتِ أن من أمامك وغدًا باقتدار، ليتخذ من قلبكِ ستار يخفي خلفه الانهيار، فينتشي باهتمامك بانبهار فمخطئة أنتِ سـيدتي، فمن أمامك ذاق مرارة الانكسـار، فأنا لم أتغنى بحبك كاذبًا، أو ألقي عليكِ معسـول الكلام، فالحب لن يأتي فجأةً، ولا يعامل باسـتهتار، فالحب أسـاسـه المودة، والعلاقات تبنى على الاحترام والقلوب تلين حينما تغزو الرحمة حناياها قاطنة.

نظرت إليه بـانـدهـاش، وخفقـاتهـا تراقصـت بـاحتفـال، فـالحبيب الغائب عاد، واعدًا بالحياة، والعيون تقابلت في اتفاق، تتلو وعودا صـادقة، لا تصـدق بالهيام... فالقلب يعشـق عندما نجد شريك أرواحنا فلا قيمة للمحبة عندما تلقي بقلوبنا للتهلكة.

تمت بحمد الله